المحاضرة الثانية: اللغة والمجتمع والثقافة

تلعب اللغة الدور البارز في بناء المجتمع وثقافته لسبب موضوعي، فاللغة هي عنصر من العناصر المكونة للمجتمع والثقافة معا في الوقت نفسه، فالبحث عن العلاقة بين هذه المفاهيم الحضارية الثلاثة يدفعنا إلى محاولة وضع تعاريف لكل مفهوم، لكي يساعدنا ذلك في إبرا ز طبيعة العلاقة الوطيدة بين المفاهيم على المستوى المعرفي والاجتماعي والحضاري عموما.

1/ مفهوم اللغة:

للغة مفاهيم عديدة؛ فلم يقتصر تعريفها في المعاجم اللغوية فحسب، بل عرفها علم الاجتماع وغيرها من العلوم؛ لأنّ اللغة مرتبطة بشكل أو بآخر بالعلوم الأخرى فلا يعبر عالم عن علمه ما لم يمتلك لغة تعبيرية عمّا يجول في ذهنه، ومن خلالها أيضًا يفهم الآخرين ما يقول وما يريد أن يصل إليه في أذهانهم، فاللغة هي حلقة التواصل والتقارب بين الأمم البشرية والبوح عما يدور في أذهانهم، والتعبير عما يجول فيهم من خلجات ومشاعر وأحاسيس وأفكار

اللغة نشاط اجتماعي، من حيث إنها استجابة ضرورية، لحاجة الاتصال بين الناس جميعا، ولهذا السبب يتصل علم اللغة اتصالا شديدا، بالعلوم الاجتماعية، وأصبحت بعض بحوثه تدرس في علم الاجتماع، فنشأ لذلك فرع منه يسمى" :علم الاجتماع اللغوي"، يحاول الكشف عن العلاقة بين اللغة والحياة الاجتماعية، وبين أثر تلك الحياة الاجتماعية في الظواهر اللغوية المختلفة .فهي ":أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم [1]." كما تعرف بأنها :نظام صوتي يمتلك سياقا اجتماعيا وثقافيا، له دلالاته ورموزه، وهو قابل للنمو والتطور .2 ويتضح من هذين التعريفين أن المقصود باللغة الصوت الذي يحمل رموزا تعارف جماعة من الناس على دلالاتها .وبالتالي يخرج عن ذلك لغة الإشارة.

وتعرّف أيضا بأنّها : مجموعة من الرموز المنطوقة، أو المكتوبة التي وضعها الإنسان، ووضع لكل رمز منها دلالة ومعنى معينين يحكمان اختياره لها، واستخدامها في المواقف والمناسبات الاجتماعية المختلفة. واللغة بذلك نسق رمزي، نظم لها الإنسان مجموعة القواعد اللغوية التي تحكم تركيب عباراتها وتصريفها واشتقاق مفرداتها .فللغة استعمالات متنوعة؛ فهي وسيلة تعبير اجتماعي، علمي، سياسي واقتصادي؛ مما يحتم دراسة خصائص هذه الاستعمالات المختلفة، ومعرفة أبعاد التكيف اللغوي مع مختلف الأغراض والمواقف.

2/مفهوم الثقافة:

الثَّقَافَةُ لُغَةً:

[1] الخصائص:1/ 37.

أصل الثَّقافة في اللُّغة العربيَّة مأخوذ من الفعل الثلاثي (ثقف) بضمِّ القاف وكسرها.وتُطلق في اللُّغة على معانٍ عدَّة، فهي تعني: الحذق، والفطنة، والذَّكاء، وسرعة التَّعلم، وتسوية الشَّيء، وإقامة اعوجاجه، والتَّأديب، والتَّهذيب، والعلم، والمعارف، والتَّعليم، والفنون.قال ابن فارس: «(ثقف) الثَّاء، والقاف، والفاء كلمة واحدة إليها يرجع الفروع، وهو إقامة درء الشَّيء.ويُقال: ثقفت القناة إذا أقمت عوجها.ورجل ثقف لقف، وذلك أنَّ يصيب علمًا ما يسمعه على استواء» [2].

وفي تهذيب اللغة:« رجل ثقف لقف إذا كان ضابطًا لما يحويه قائمًا به... ويقال: ثقف الشَّيء، وهو سرعة التَّعلُّم» [3] .

وعند ابن منظور: «ثقف: ثقف الشَّيء ثقفًا، وثقافًا، وثقوفةً: حذقه، ورجل ثقف، وثقف، وثقف: حاذقفهم، وأتبعوه فقالوا: ثقف لقف...ابن دريد: ثقفت الشَّيء: حذقته، وثقفته إذا ظفرت به.قال الله تعالى :﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُو ﴾]الأنفال: 57.[وثقف الرَّجل ثقافة أي: صار حاذقًا خفيفًا مثل ضخم، فهو ضخم، ومنه المثاقفة.وثقف أي: صار ثقفًا مثل تعب تعبًا أي: صار حاذقًا فطنًا. وهو غلام لقن ثقف أي: ذو فطنة وذكاء، والمراد أنَّه ثابت المعرفة بما يحتاج إليه» [4].

فالثَّقافة في اللُّغة هي: الفهم، وسرعة التَّعلم، وضبط المعرفة المكتسبة في مهارة، وحذق، وفطنة.

التَّقَافَةُ اصْطِلَاحًا:

لقد عرفت الثقافة في مجالها الاصطلاحي بتعاريف مختلفة تصب كلها في فلك واحد ،وهذا '' كلباتريك '' Kilpatrickيعرفها بأنها كل ما صنعه عقل الإنسان من أشياء ومظاهر اجتماعية في بيئته الاجتماعية أي كل ما قام باختراعه وباكتشافه الإنسان وكان له دور في مجتمعه.

وعرفها "مالينوفسكي" على أنها تشتمل المهارات الموروثة والأشياء والأساليب أو العمليات الفنية، والأفكار والعادات والقيم.

ومن أشمل تعريفات الثقافة نجد تعريف "مالك بن نبي" وهي عبارة عن مجموعة من الصفات والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ والدته، وتصبح لا شعوريا العالقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه، فهي على هذا التعريف المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته.

وقدم مُحَمَّد الهادي عفيفي تعريفا شاملا للثقافة فهي في نظره تعنى كل ما صنعه الإنسان في بيئته خلال تاريخه الطويل في مجتمع معين وتشمل اللغة والعادات والقيم وآداب السلوك العام والأدوات والمعرفة والمستويات الاجتماعية والأنظمة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتعليمية والقضائية. فهي تمثل التعبير الأصلي عن

---

[2] معجم مقاييس اللُّغة ، ج1، ص382، بتصرُّف.

[3] تهذيب اللغة، مُحَمَّد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (ت370هـ)، تحقيق: مُحَمَّد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 1، 2001م، ج9، ص81.

[4] لسان العرب: ابن منظور ، ص19، ج9، بتصرُّف.

الخصوصية التاريخية لأمة من الأمم عن نظرة هذه الأمة إلى الكون والحياة والموت والإنسان وقدراته وما ينبغي أن يعمل، وما لا ينبغي أن يعمل أو يأمل .هناك عدة تعريفات للثقافة منها:

1- :هي مجمل طريقة حياة الجماعة أي أنها تشمل طريقة حياة الجماعة بجوانبها المختلفة المادية والمعنوية.

2- الثقافة هي نلك النسيج الكلى المعقد الذي قام الإنسان نفسه بصنعه متمثلا في الأفكار والمعتقدات والعادات والتقاليد والقيم وأساليب التفكير وأنماط السلوك وطرق معيشة الأفراد وقصصهم وألعابهم ووسائل الاتصال والانتقال وكل ما توارثه الإنسان وأضافه إلى تراثه .

الثقافة بمفهومها العام هي ذلك النسيج الكلى المعقد من الأفكار والمعتقدات والعادات والاتجاهات والقيم وأساليب التفكير والعمل، وأنماط السلوك وكل ما يبقى عليه من تجديدات أو ابتكارات أو وسائل في حياة الناس. مما ينشأ في ظله كل عضو من أعضاء الجماعة .ومما ينحدر إلينا من الماضي ونأخذ به كما هو أو نطوره في ضوء ظروف حياتنا وخبراتنا .فالثقافة بهذا المفهوم مادية، فردية، اجتماعية، نظرية، محلية، عالمية أو هي كما يقال : كل شيء في حياة الفرد والمجتمع على السواء .وخالصة القول أن الثقافة عبارة عن مجموعة الأنماط السلوكية من الناس تؤثر في سلوك الفرد الموجودة في تلك في تلك المجموعة وتشكل شخصيته وتتحكم في خبراته وقراراته ضمن تلك المجموعة من الناس التي يعيش بينها.

ومن التعريفات السابقة للثقافة نستخلص أن العنصر المشترك فيها هو الإنسان ذو الفاعلية المؤدية إلى استحداث أمور في مجتمعه، بعضها مادي يتمثل في كل ما ينتجه ويمكن التحقيق منه بالحواس والبعض الآخر غير مادي ويتضمن العادات والتقاليد والقيم والأخلاق والأساليب الفنية.

3/ خصائص الثقافة:

من خلال ماسبق يمكن القول أن الثقافة هي ميزة المجتمع الإنساني ، وذلك لاختلاف ثقافة كل مجتمع عن ثقافات غيره من المجتمعات الأخرى، فلكل ثقافة خصائص تميزها عن غيرها من الظواهر الاجتماعية الموجودة في المجتمع، ومن بين أهم خصائص هذه الظاهرة الاجتماعية ما يلي:

1/ الثقافة نتاج إنساني:

الثقافة ظاهرة خاصة بالإنسان وحده دون غيره من الكائنات الأخرى، فهي إنتاج عقلي استخدم الإنسان فيها عقله من أجل حياة أفضل، بمعنى أنها نشأت كنتيجة لصراع العقل الإنساني مع الطبيعية ومحاولة التحكم في الظروف المحيطة.ومن هنا يمكن القول بأن الثقافة نتاج عقلي يمتاز به الإنسان عن باقي المخلوقات الحية.

2/ الثقافة **نتاج** اجتماعية:

تكوين الثقافة لا يقتصر على الفرد وحده فقط بل يتجاوز ذلك إلى أفراد المجتمع، فالعادات الجمعية أو العادات المشتركة في جماعة معينة (الأسرة أو القرية أو القبيلة) هي التي تكون الثقافة أو ما تسمي بالثقافة الفرعية ، ومع ذلك يلتزم بها أفراد مجتمع معين بشكل متبادل.

3/ الثقافة مكتسبة:

إذا كان كل مجتمع إنساني يتميز بثقافة معينة ومحددة بزمان ومكان ، فإن الإنسان يكتسب ثقافة المجتمع الذي يعيش فيه منذ ولادته عن طريق الخبرة الشخصية . وربما يقودنا هذا إلى القول بأنها موروثة بيولوجيا. فالأنظمة الثقافية مثلا كنظام الطعام ، أو نظام الرعي ، أو نظام الصيد اخترعها الإنسان فهي في مجموعها أفكار وأعمال معينة بغرض إشباع الحاجات الفطرية، فهي تنتقل من فرد لآخر ومن جيل إلى جيل ضمن اصطلاح التراث الثقافي والاجتماعي.

4/ الثقافة مستمرة:

تنقل الثقافة من جيل إلى جيل لعدة قرون محافظة بكيانها ووجودها لعدة أجيال بالرغم من تعرض المجتمع للتغير المفاجئ و التدريجي في ظروفه العامة، ومع هذا تفلح بعض السمات في البقاء والاستمرار محافظة على صورتها الأصلية ، فالحكم والأمثال الشعبية أو النكت أو الفنون التشكيلية القديمة لا تفقد قيمتها بالرغم من تباين واختلاف الأذواق من عصر لآخر.

5/ **الثقافة** تراكمية :

تعتبر الثقافة نتيجة أفكار متراكمة بعد مرور الزمن، فهي تنتقل من الجيل إلى الجيل الذي يليه علي شكل عادات وتقاليد ونظم وأفكار ومعارف يتوارثها الخلف عن السلف ، عن طريق المخلفات المادية والرموز اللغوية ، بحيث يبدأ الجيل التالي من حين انتهى الجيل الذي قبله وهذا يساعد على ظهور أنساق وأنماط ثقافية جديدة.

6/ **الثقافة** انتقالية:

إن انتقال الثقافة من الجيل إلى الجيل وتوارثها يختلف عن توارث الصفات الجسمية والحيوية في الكائنات الحية، فانتقال عناصر الثقافة يتم على نحو انتقائي خاصة في المجتمعات الحديثة، التي أصبحت خاضعة للمعايير العقلانية والرسمية.

7/ الثقافة متغيرة:

على الرغم من استمرارية الثقافة إلا أنها ليس ثابتة بل تمتاز بالتغيير مع مرور الوقت ، ويحدث هذا التغير بفضل ما تضيفه الأجيال الجديدة إليها من خبرات وأدوات وقيم ، وأنماط سلوك ، وما تستبعده وتحذفه من أساليب وأفكار وأدوات نتيجة لأنها لم تعد تتفق مع الظروف الجديدة.

8/ **الثقافة كل متكامل:** المقصود من التكامل الثقافي أن تكون هناك درجة معينة من الاتزان بين العناصر المختلفة التي تكون الثقافة، وتعتبر هذه الخاصية نتيجة طبيعية لعملية التوافق، فعناصر أية ثقافة قد تميل إلى أن تكون أو تشكل كال متكاملا ومتلائما، على أن التكامل الواقعي الخالص مسألة لا يمكن أن تتحقق نظرا لأن الأحداث التاريخية تحدث باستمرار تأثيرا مخال إلى درجة ما. وأنماط الثقافة تترابط وتتكامل مع بعضها بفضل بعض العناصر التجريدية التي يطلق عليها اسم موضوعات أساسية أو تشكيلات.

4/ العلاقة بين اللغة والثقافة:

يقر الدارسون أن هناك خمسة عناصر أساسية يمكن اتخاذها معيارا لتصنيف البشرية إلى أمم، ولوضع الفوارق بينها متمثلة ب :الجنس المشترك والدين والقومية واللغة والثقافة.

واللغة والثقافة بوجه خاص دور بارز في هذا التصنيف، إذ هما بمثابة المرآة العاكسة لكل أنواع النشاط الإنساني في هذه الأمة أو تلك، كما أن بين اللغة والثقافة علاقة وثيقة أو بتعبير آخر علاقة الجزء بالكل، فاللغة أخص والثقافة أعم وأن بينهما علاقة التأثير والتأثر .فاللغة ليست مجرد ضوضاء أو أصوات تلقى في الهواء، وإنما هي تجسيد حي لكل معارف الإنسان وخبرته ودليل شخصيته وهويته الثقافية.

أن الاتفاق والافتراق في البيئة اللغوية المعينة ينطبقان بصورة أو بأخرى على الوضع الثقافي لهذه البيئة، ومثال ذلك ما عرضه د .كمال بشر في كتابه) علم اللغة الاجتماعي (للأبوة فهي قيمة لغوية ثقافية ولكن يُعبر عنها في مجتمعاتنا العربية بصور متعددة، فهناك من يقول :بابا، يابا، بابي، دادي، بيي ...إلى جانب الصيغتين الفصيحتين :أبي ووالدي.

إن الارتباط بين اللغة والثقافة وحدة أو تنوعا يتوقف على درجات الاختلاف اللغوي والثقافي معاً، فإذا كان الاختلاف كبيرا بين اللغات كان الاختلاف بين الثقافات واضحا لكن درجة الاختلاف في الثقافات أقل في حالة التقارب اللغوي.

كما تؤدي العوامل الاقتصادية والأحداث الاجتماعية دوراً مهماً في السلوك الثقافي لأفراد المجتمع مما ينعكس سلبا على الجانب اللغوي، لتظهر على السطح ألفاظ،

وعبارات وأساليب لم يعد توظيفها مقصوراً على أصحا ا من الفئات الجديدة التي ملأت الحياة بغبار التجاوز والشذوذ في الأجواء الاجتماعية والثقافية، بل تعدى هذا التوظيف حدوده وتسلل إلى مختلف الألسن ومختلف الطبقات.